نَظَرِيَّةُ الاصْطِفَاءِ فِي القُرْآنِ الكَرِيمِ

الشيخ الدكتور علي حمود العبادي

النجف الاشرف - العراق

فحوى البحث

يدور هذا البحث حول حقيقة الاصطفاء في القرآن الكريم و التي عضدتها النصوص القرآنية باروع بيان ووافقت العقل المؤمن، كاشفة عن شرائطها وغاياتها بروح برهانية وعناصر استدلالية.

وفي ضوء ما سلف، فقد انطلقت منهجية البحث، من خلال حقيقة وماهية هذه النظرية، ومن ثم الاستدلال عليها في النصوص القرآنية والروائية التي تبلغ حد الاستفاضة والتواتر بما يغني عن دخول غمار البحث السندي، مشفوعة باستشهادات روايات علماء المسلمين كافة في المواضع التي تتطلب ذلك والاستئناس باقوالهم.

وقد جاء البحث ضمن اربعة مباحث احاطت بالموضوع من كل جوانبه.

يدور هذا البحث ضمن الهيكلية التالية:

المبحث الأول: الاصطفاء في اللغة والاصطلاح القرآني والروائي.

المبحث الثاني: الاصطفاء في روايات الفريقين.

المبحث الثالث: أسباب ومناشيء الاصطفاء في القرآن وروايات الفريقين.

المبحث الرابع: أسباب ومناشيء الاصطفاء عند العقل.

المبحث الخامس: أسباب ومناشيء الاصطفاء عند العقلاء.

المبحث الأول:
الاصطفاء في اللغة والاصطلاح القرآني والروائي

الاصطفاء في اصطلاح أهل اللغة:

قال الفراهيدي: ((الصفو نقيض الكدر، وصفوة كل شيء خالصه وخيره. والاصطفاء: الاختيار، افتعال من الصفوة، ومنه النبي المصطفى، والأنبياء المصطفون))[1].

وقال الراغب في المفردات: ((الاصطفاء: تناول صفو الشيء، كما أن الاختيار: تناول خيره.. واصطفاء الله بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافياً عن الشوب الموجود في غيره... قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ ﴾[سورة الحج: ٧٥]، والصفيّ والصفيّة: ما يصطفيه الرئيس لنفسه))[2].

وقال الزبيدي في تاج العروس: ((الصفو نقيض الكدر كالصفا... والصفو كعلو والصفوة مثله وصفوة الشيء مثلثة ما صفا منه وخلص ومنه محمدﷺ صفوة الله من خلقه أي خالصه))[3].

ومن مجموع ما تقدم يتضح أن المعنى اللغوي للاصطفاء يتضمن المعاني التالية:

(١) الخليل الفراهيدي، أحمد، كتاب العين: ج٧ ص١٦٢.

(٢) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، مفردات غريب القرآن: ص٤٨٧-٤٨٨.

(٣) الزبيدي، محمد مرتضى، تاج العروس: ج ١٠ ص٢١٠. الفيروز آبادى، القاموس المحيط: ج٤ ص٣٥٢.

الأول: خلوص وصفاء المصطَفَيْن من كل شائبة وكدر، فيكون المصطفى في أعلى رتبة من النزاهة والكمال ذهنياً وسلوكياً.

الثاني: إن الاصطفاء قريب من معنى الاختيار، والفرق بينهما هو أن الاختيار أخذ الشئ من بين الأشياء بما أن ذلك الشيء هو خيرها، أما الاصطفاء فهو أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنه صفوتها وخالصها.

الثالث: إن الاصطفاء ملازم لمعنى الامتياز والتقدم على الآخرين، ليكون المصطفى نموذجاً وقدوة يقتفى به في طريق الخير والصلاح.

قال الشيخ الطوسي في تفسيره: ((اصطفى: اختار واجتبى وأصله من الصفوة، وهذا من حسن البيان الذي يمثل فيه المعلوم بالمرئي وذلك أن الصافي هو النقي من شائب الكدر فيما يشاهد فمثل به خلوص هؤلاء القوم من الفساد لما علم الله ذلك من حالهم لأنهم كخلوص الصافي من شائب الأدناس))[٤].

(٤) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان: ج٢، ص٤٤٠.

الاصطفاء في القرآن الكريم

حظي مفهوم الاصطفاء بعناية فائقة في النصوص القرآنية في موارد عديدة؛ لتسجل حقيقة قرآنية مهمة، وهي أن الله تعالى قد اصطفى أفراداً من خلقه وعباده، وهذه الحقيقة القرآنية يعكس مضمونها عدة من الآيات القرآنية منها:

١. قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة آل عمران: ٣٣-٣٤].

والآية المباركة واضحة الدلالة على أن البعض من ذرّية إبراهيم عليه السّلام هم من المصطفين لا جميع ذرية إبراهيم، و لا جميع ذرية بني إسرائيل كذلك، و إن كان اللهّ عزّ وجلّ قد فضّل بني إسرائيل على العالمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الجاثية: ١٦]، لكن تفضيلهم على العالمين من جهة لا ينافي تفضيل غيرهم عليهم من جهات أخرى.

قال الشيخ الطوسي: (الآية تدل على أن الذين اصطفاهم معصومون منزهون، لأنه لا يختار ولا يصطفي إلا من كان كذلك، ويكون ظاهره وباطنه واحدا، فإذا يجب أن يختص الاصطفاء بآل إبراهيم وآل عمران من كان مرضيا معصوما سواء كان نبيا أو إماما))[٥].

ويشير إلى هذا المعنى العلامة الطباطبائي حيث يقول في ذيل الآية المباركة: ((الاصطفاء: أخذ صفوة الشيء وتخليصه مما يكدره فهو قريب من معنى الاختيار وينطبق من مقامات الولاية على مقام الإسلام وهو جرى العبد في مجرى التسليم المحض لأمر ربه فيما يرتضيه له... فالاصطفاء على العالمين نوع اختيار وتقديم لهم عليهم في أمر أو أمور لا يشاركهم فيه أو فيها غيرهم))[٦].

وبعبارة أخرى أن الله تعالى يصطفي أنبياءه وأولياءه ويوفر لهم ما يحتاجون اليه في كل مواقع المسؤولية في الحياة إنْ في النبوة وإنْ في الإمامة، وهذا ما يمكن استيحاؤه من قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا..﴾.

٢. قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾ [سورة النمل: ٥٩]، فالآية فيها حمد وثناء لأولئك العباد المصطفين، وهو يكشف عن توفرهم على الهداية الإلهية على ما يقتضيه معنى السلام؛ لأن في الأمر بالسلام أمراً ضمنياً بالتهيؤ لقبول ما عندهم من الهدى وآثاره الجميلة فهو على غرار قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾[سورة الانعام: ٩٠].

٣. ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٤٢]. معنى على العالمين أن الاصطفاء هو تقدمها على نساء العالمين، أي على نساء عالمها كما ورد في الروايات المباركة[٧].

(٥) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان: ج ٢، ص٤٤٠.

(٦) الطباطبائي، محمد حسين، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ٣، ص١٦٤ -١٦٩.

(٧) انظر الامالي للشيخ الصدوق: ص١٨٧.

٤. قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا ۚ قَالُوٓا۟ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ ۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٤٧]. وهي واضحة الدلالة على اختيار واصطفاء طالوت عليه السلام دون غيره لتوفره على مزايا وخصائص الإمامة والقيادة.

وهذا ما يشير إليه الفيض الكاشاني في تفسير الآية، حيث يقول: ((فضيلة وسعة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع، واسع الفضل يوسع على الفقير ويغنيه، عليم بمن يليق بالملك لما استبعدوا تملكه لفقره رد عليهم بأن العمدة فيه اصطفاء الله، وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح، وبأن الشرط فيه وفور العلم ليتمكن به من معرفة الأمور السياسية، وجسامة البدن ليكون أعظم خطراً في القلوب، وأقوى على مقاومة العدو، ومكابدة الحروب لا ما ذكرتم، وقد زاده الله فيهما... وبأنه واسع الفضل يغنيه، عليم به إذ يصطفيه))[٨].

وهذا ما يؤكده أحد أعلام المفسرين وهو القرطبي، حيث يقول في ذيل الآية المباركة: ((لما استبعدوا تملكه بسقوط نسبه وبفقره رد عليهم ذلك، أولاً: ملاك الأمر هو اصطفاء الله تعالى، وقد اختاره عليكم وهو أعلم بالمصالح منكم، وثانياً: بأنّ العمدة فيه وفور العلم؛ ليتمكن به من معرفة أمور السياسة، وجسامة البدن ليعظم خطره في القلوب ويقدر على مقاومة الأعداء ومكابدة الحروب، وقد خصّه الله تعالى منهما بحظ وافر، وذلك قوله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ ۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٤٧]))[٩].

(٨) الفيض الكاشاني، محمد بن المرتضى، التفسير الصافي: ج١، ص٢٧٤ – ٢٧٥.
(٩) القرطبي، محمد بن أحمد، أحمد بن محمد، تفسير القرطبي: ج٧ ص٢٤.

٥. قوله تعالى: ﴿ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٤]. وهي دالة على اختيار واصطفاء موسى عليه السلام واستخلاصه لما له من الفضائل والمؤهلات العالية.

قال صدر المتألهين في تفسيره: ((يختار اللهّ عزّ وجلّ أنبياءه و رسله، لما يجده فيهم من مقومات عظيمة و ومؤهلات عالية، و لما يراه مناسبا لقومهم، و يلاءم عصرهم و زمانهم. و هذا منهج يتبعه القادة و الحكام، فإنهم يبعثون الرسل و السفراء إلى أمراء العالم و حكامهم، و يختارونهم اختياراً موفقاً يؤدون فيه مهامهم أداء حسناً. غير أنه مع الأسف الشديد يرفض بعض الجهلاء هذا المبدأ العقلي السليم...))[١٠].

٦. قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [سورة الحج: ٧٥].

٧. قوله تعالى: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠ - ١٣٢].

فعلى ضوء هذه الإضمامة القليلة من النصوص القرآنية وما يشاركها في المضمون، التي ذكرت الاصطفاء وأثبتته لبعض من عباد الله يتضح أن مقام الاصطفاء في القرآن الكريم هو تناول صفوة الخلق من أنبياء و رسل، وأوصياء لما فيهم من استعدادات ومؤهلات عالية، على أداء وحمل مسؤولية الرسالة.

وهناك نصوص أخرى ذكرت الاصطفاء في موضع النفي، لكن تتضمن وتستبطن معنى اختيار الأفضل كقوله تعالى: ﴿ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ

(١٠) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): ج٣ ص٢٠٠.

﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾

[سورة الصافات: ١٥١ -١٥٤].

فالباري جلّ وعلا يسفه دعواهم بأُسلوب الاستفهام الاستنكاري ليدل على أنه لا تمييز بين الذكر والأنثى، فلم تكن الإناث صفوة الخلق حتى يخصّ تعالى بهن نفسه لكي يجعل الملائكة إناثاً كما يفترون، وأما قوله تعالى: ﴿ لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾

[سورة الزمر: ٤]، بمعنى أن الخلق كلهم لله تعالى، فلو أراد الله أن يتخذ ولداً، لاختار لنفسه صفوتهم وأمثلهم ممن يشاء، فهذه النصوص الثلاثة هي في مورد نفي الاصطفاء، إلا أنها تستبطن اختيار الأفضل.

أما بقية النصوص الأُخرى التي ذكرت الاصطفاء، فكلها جاءت في مورد انتقاء الأمثل وتمييزه على جميع من عداه، مضافاً إلى استبطانها لبيان وظيفية المصطفين، وبهذا يلتقي المعنى اللغوي والاستعمال القرآني لمعنى الاصطفاء في معنى الأفضل والأمثل.

وانطلاقا من هذه الآيات القرآنية يتضح أن الاصطفاء الإلهي ليس غاية في ذاته، بل ينبئ عن إرادة ربانية في اختيار الأمثل من البشر لأجل حمل مسؤولية الرسالات الإلهية، كما سيتضح.

المبحث الثاني:

الاصطفاء في روايات الفريقين

بعد الانتهاء من استعراض بعض النصوص القرآنية الدالة التي أغنت بروحها البرهانية وعناصرها الاستدلالية عن إقامة أي دليل آخر، إلا أن ثمة نصوص روائية من الفريقين تكشف النقاب عن هذه الحقيقة المهمة، وإليك إضمامة من هذه الروايات:

١. الاصطفاء في روايات الشيعة:

هنالك عدد وافر من روايات أهل البيت عليهم السلام ظللت مفهوم الاصطفاء بشكل واضح، وفيما يلي سوف نتعرض لجملة من هذه الروايات:

- عن موسى بن بكر، عن أبي الحسن الأول عليه السلام، قال: قال رسول صلى الله عليه وآله: إن الله تبارك وتعالى اختار من كل شيء

أربعة: اختار من الملائكة جبرائيل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت عليهم السلام، واختار من الأنبياء أربعة للسيف إبراهيم وداود وموسى وأنا، واختار من البيوتات أربعة، فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة آل عمران: ٣٣]))[١١].

- عن علي بن يقطين عمن رواه عن أبي عبد الله عليه السلام قال: ((أوحى الله عزّ وجلّ إلى موسى عليه السلام أن يا موسى أتدري لما اصطفيتك بكلامي دون خلقي؟. قال: يا رب ولم ذاك؟. قال فأوحى الله تبارك وتعالى إليه: يا موسى إني قلّبت عبادي ظهراً لبطن فلم أجد فيهم أحداً أذلّ لي نفساً منك، يا موسى إنّك إذا صلّيت وضعت خدك على التراب))[١٢].
- عن ابن ثعلبة الكعبي، قال: لما قدم أبو ذر الغفاري مكة دخل المسجد وأخذ بحلقة باب الكعبة ثم استقبل الناس بوجهه، فقال: أيها الناس((إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين ذريه بعضها من بعض والله سميع عليم، ثم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((الأسرة من نوح والآل من إبراهيم والصفوة والسلالة من إسماعيل والعترة الهادية من محمد صلى الله عليه وآله، شرف شرفهم وبه أخذوا الفضل من فوقهم. فهم فينا كالسماء المرفوعة، والجبال المنصوبة،... ومن الأوصياء وصّى آدم في علمه ومعدن العلم بتأويله وإمام المرحومين وقائد الغر المحجلين والصديق الأكبر على بن أبي طالب عليه السلام))[١٣] وغير ذلك من الروايات الكثيرة الدالة على الدالة على أن الاصطفاء هو اختيار الصفوة من الخلق.

(١١) الصدوق، محمد بن الحسين، أبو جعفر محمد بن علي، الخصال: ص٢٢٥-٢٢٦.
(١٢) المصدر السابق: ص١٢٦.
(١٣) الحسني، ابن طاووس، التحصين: ص٦٠٧.

٢. **الاصطفاء في روايات السنة:**

ورد الاصطفاء عند أهل السنة في موارد متعددة على مستوى الرواية والتفسير نتعرض لبعض منها:

- أخرج البخاري عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[سورة آل عمران: ٣٣]، قال: ((هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد يقول الله عز وجل: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾[سورة آل عمران: ٦٨]. وهم المؤمنون)) فقال:

((أي المراد بآل عمران المصطفين المؤمنون منهم وكذلك المؤمنون من آل إبراهيم والمؤمنون من آل ياسين والمؤمنون من آل محمد صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين، فهو من العام الذي أريد به الخاص))[١٤].

- أخرج الطبري في تفسيره: ((عن قتادة في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قال: ((ذكر الله أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين ففضلهم على العالمين فكان محمد من آل إبراهيم))[١٥].

- أخرج الطبري أيضاً في تفسيره عن عباد عن الحسن في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ إلى قوله: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ قال: ((فضلهم الله على العالمين بالنبوة على الناس كلهم كانوا هم الأنبياء الأتقياء المصطفين لربهم))[١٦].

- أخرج البخاري عن مجاهد في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ إن الله اصطفاك وطهرك قال: ((جعلك طيبة إيماناً {اصطَفَاكِ} اختارك وخصك بفضل لم يكن لغيرك، ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ من الأدناس المادية

(١٤) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج٣، ص١٢٦٣.

(١٥) الطبري، محمد بن جرير، تفسير الطبري: ج٣، ص٢٣٣.

(١٦) المصدر السابق.

والمعنوية. ﴿ٱصْطَفَىٰكِ﴾ فضلك على غيرك من النساء)) [١٧].

وحاصل ما تقدم: أنّ فلسفة الاصطفاء والاختيار الإلهي، قائمة على أساس الحكمة والعدالة الإلهية وغير خاضعة للمقاييس البشرية، التي يعجز البشر عن الاطلاع على بواطن الأمور وخفايا النفوس، فلا مدخلية للبشر في الاختيار والاصطفاء الإلهي، فهؤلاء المصطفون من الأنبياء والأوصياء قد بلغوا شأناً عالياً ودرجات رفيعة، بحيث يتعذر على كثير الناس من بلوغ هذه المراتب؛ لأن بعض الناس قد يبلغ شأناً عالياً من العلم، وبعضهم في التقوى، وبعضهم في الصبر أو نكران الذات، ونحوها من الصفات الكريمة، بينما الصفوة المختارة من الله تعالى، فهم لا يضاهيهم أحد في الأمثلية في كل بعد من الأبعاد الضرورية لحمل الرسالة ومسؤولياتها تبعاً لما تمليه عليهم مسؤوليات النبوة والإمامة والوصاية، وهذا أمر لا يمكن أن يطّلع عليه أحد إلا الله تعالى، لذلك كان أمر الاختيار لهذه المناصب بيده تعالى فقط.

فالله تعالى لما علم فيهم هذه الاستعدادات والمؤهلات في حمل الرسالة والنبوة استخلصهم تعالى لنفسه للقيام والنهوض بحمل الرسالة وأعبائها.

فهو تعالى الذي يختار ويجتبي صفوة من خلقه، فيستخلصهم لنفسه ويولي عنايته الخاصة بهم وينقّيهم من كل شوب ودنس وكدورة؛ كل ذلك لأجل النهوض بأعباء ومسؤوليات النبوة والإمامة.

المبحث الثالث:

أسباب ومناشيء الاصطفاء في القرآن وروايات الفريقين:

على ضوء هذه الخلفية لمعنى الاصطفاء على مستوى القرآن والسنة، يطرح هذا السؤال وهو ما هي الأسباب والمناشيء التي على أساسها يصطفي الباري تعالى بعض العباد دون البعض الآخر؟.

لكي تتضح أسباب اصطفاء الباري

(١٧) البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج١، ص١٢٦٥.

تعالى لبعض عباده يتطلب منا الخوض في النصوص القرآنية والروائية الدالة على ذلك:

١. أسباب ومناشيء الاصطفاء في النصوص القرآنية:

هناك عدد من النصوص القرآنية تكشف بوضوح أسباب ومناشئ الاصطفاء، منها:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا.. ﴾ [سورة الرعد: ١٧]، حيث يشير الباري تعالى إلى أن كل فرد من الإنسان يأخذ من الفيض والعطاء الإلهي بحسب إرادته وقدر ما استعد له، كما أن الأودية الكبيرة والأنهار الصغيرة تأخذ قدرها من المياه بحسب ما استعدت له.

فالله تعالى فياض للعطاء لكل إنسان سواء الذي يريد العاجلة أن الآخرة، والإناء هو الذي يلوّن العطاء الإلهي.

ففي الرواية عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا ﴾ قال: ((الكبير على قدر كبره، والصغير على قدر صغره -إلى أن قال:-أنزل الحق من السماء، فاحتملته القلوب بأهوائها، ذو اليقين على قدر يقينه، وذو الشك على قدر شكّه، فاحتمل الهوى باطلاً كثيراً وجفاءً، فالماء هو الحق، والأودية هي القلوب، والسيل هو الهوى، والزبد هو الباطل))[١٨].

الآية الثانية: قوله تعالى: ﴿ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [سورة الإسراء: ٢٠]، والآية المباركة تكشف بصراحة عن أن الباري تعالى هو المنان والفياض للخير على أساس الحكمة الإلهية التي تقتضي أن يكون العطاء على وفق إرادة واستعداد الإنسان، وان إرادته هي التي تحدد ماهية وكمية العطاء الإلهي.

الآية الثالثة: ﴿ مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ

(١٨) القمي، علي بن إبراهيم، تفسير القمي: ج١، ص٣٦٢-٣٦٤.

﴿أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾.

قال العلامة الطباطبائي في ذيل الآية المباركة ((الله سبحانه يمدّ كل نفس من عطائه بما يستحقه، فإن أراد الخير أوتيه، وإن أراد الشر أوتيه، أي منع من الخير، ولو شاء الله لكل نفس صالحة أو طالحة أن تشاء الخير وتنكب على الإيمان والتقوى من طريق الاختيار، كان في ذلك إبطال النظام العام وإفساد أمر الأسباب))[19].

فالناس هم الذين يقسمون أنفسهم لا أن الله تعالى يقسمهم، فالذين أرادوا لأنفسهم أن يكونوا من المصطفين، فإن الله تعالى يمدهم على ضوء إرادتهم لذلك؛ لكي يوفقوا إلى الطاعة، والذين أرادوا العناد والعصيان، فالله تعالى يمدهم على حسب ما أرادوا.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ ۖ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنفال: ٢٣] أي أن هؤلاء لا يريدون سماع الخير، وأنهم مصرين على الهروب من الحقيقة، ولو علم اله تعالى منهم أنهم يريدون الطاعة لهيئ الله تعالى لهم أسباب ذلك وفتح قلوبهم وأسمعهم، بل حتى لو أعطى لهم الله تعالى البصيرة، وفتح قلوبهم فإنّهم لا يستفيدون منها.

الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٤].

فهؤلاء رفضوا الإيمان بما جاءت به رسل الله، وقالوا: لماذا لا نكون نحن أصحاب المعجزة، فجاء الجواب الإلهي بأن الله أعلم حيث يجعل رسالته، أي أنه تعالى أعلم بمن هو الذي يستحق أن يعطى.

٥. قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾ [سورة الكهف: ٨٠].

فيقول تعالى إنّما بعثنا عبداً من

(١٩) الطباطبائي، محمد حسين، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ٧، ص٦٦.

عبادنا أن يقتل الابن؛ لأن سيكون سبّبا في كفر والديه،؛ لأنّه يسيء معاملتهما ويحاصرهما في النشاط الروحي، من خلال طغيانه وإيذاء والديه ﴿ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ ﴾، أي أشدّ وصلاً للقرابة وللرحمة، فلا يرهقهما بشيء، فالله تعالى هيّأ للأبوين أسباب الطاعة بإرادتهما واستعدادهما لها، فقتل الابن لكونه مانعاً في وصول الأبوين لكمالهما.

وعن ابن عباس، في قوله: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ قال: ((حفظا لصلاح أبيهما، وما ذكر عنهما صلاحاً))[٢٠].

الآية السادسة: قوله تعالى: ﴿ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾[سورة الأعلى: ٨].

وهذه الآية المباركة تشير بوضوح إلى إن من علم الله منه أنه يريد الطاعة، فالله تعالى بمقتضى حكمته وعدله يهيئ له مقدمات الطاعة، وإذا علم من عبد أنه يريد الشرك ويريد العصيان والعناد، فالحكمة الإلهية تقتضي أن (نيسره للعسرى) أي: نهيئ له تلك المقدمات التي من خلالها يستطيع أن يأتي بفعله على وفق ما أراد؛ لذا قال ﷺ: ((كلٌّ ميسّر لما خلق له))[٢١] أي كلٌّ ميسّر لما أراد واستعد له.

٢. أسباب ومناشيء الاصطفاء في الروايات

هنالك جملة من الروايات تدل على أن الله تعالى يصطفي بعض البشر على ضوء وجود المؤهلات في الإنسان المصطفى، ومن هذه الروايات.

- ما رواه الطبرسي في الاحتجاج بصدد سؤال الزنديق الذي سأل أبا عبد الله عليه السلام عدة من الأسئلة، فكان من جملتها قول الزنديق: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟... قال عليه السلام: ((علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة

(٢٠) الحاكم، المستدرك على الصحيحين: ج٢، ص٤٠٠.

(٢١) المجلسي، محمد باقر، بحار الأنوار: ج٤، ص٢٨٢؛ البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري: ج٨، ص٢١٥.

عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب...))[٢٢].

- عن إبراهيم بن عمر اليماني، عن أبي عبد الله عليه السلام ((خلق الخلق فعلم ما هم صائرون إليه وأمرهم ونهاهم، فما أمرهم به من شيء فقد جعل لهم السبيل إلى تركه ولا يكونون آخذين ولا تاركين إلا بإذن الله))[٢٣].
- عن أبي عبيدة الحذاء، عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ((قال الله عزّ وجلّ إن من عبادي المؤمنين عباداً لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالغنى والسعة والصحة في البدن، فأبلوهم بالغنى والسعة وصحة البدن، فيصلح عليهم أمر دينهم، وإن من عبادي المؤمنين لعباد لا يصلح لهم أمر دينهم إلا بالفاقة والمسكنة والسقم في أبدانهم، فأبلوهم بالفاقة والمسكنة والسقم، فيصلح عليهم أمر دينهم، وأنا أعلم بما يصلح عليه أمر دين عبادي المؤمنين))[٢٤]. وغيرها مما يشاركها بالمضمون الدالة على أن سبب اصطفاء الله تعالى لبعض عباده هو علمه تعالى بأن أولئك العباد لا يريدون إلا الطاعة، لذلك اصطفاهم واختارهم دون غيرهم.

كلمات أعلام السنة في أسباب الاصطفاء:

هنالك جملة من كلمات أعلام السنة صرحوا بأن سبب ومنشأ الاصطفاء يعتمد ويتكئ على العلم الإلهي بأهلية هذه المجموعة البشرية قبل خلقهم، واليك بعضاً من هؤلاء:

ذكر الآلوسي في تفسيره: ((ما ورد في الصحيح: اعملوا فكلّ ميّسر لما خلق له، أما من كان -أي في علم الله -من أهل السعادة المستعدة لها ذاته، فسييسر بمقتضى الرحمة لعمل أهل السعادة؛ لأن شأنه تعالى الإفاضة على القوابل

(٢٢) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص٨٣ - ٨٤.

(٢٣) الكليني، محمد بن يعقوب، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج١، ص١٥٨.

(٢٤) المصدر السابق: ج ٢، ص٦٠.

بحسب القابليات، وأما من كان في الأزل والعلم القديم من أهل الشقاوة التي ثبتت لماهيته الغير المجعولة أزلاً، فسييسر بمقتضى القهر لعمل أهل... فيؤول الأمر إلى أن سبب نفي إيجاد الهداية انتفاؤها في نفس الأمر، وعدم تقررها في العلم الأزلي، ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم))[٢٥].

وكذلك يمكن الاستئناس بما ذكره أبو السعود: قال في تفسيره: ((والاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء، مثل به اختياره تعالى إياهم النفوس القدسية وما يليق بها من الملكات الروحانية والكمالات الجسمانية المستتبعة للرسالة في نفس المصطفى، كما في كافة الرسل عليهم الصلاة والسلام))[٢٦].

أما ابن كثير فقد قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾: ((قال قتادة: فكان في علم الله.. أنه سيكون في تلك الخليقة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة..))[٢٧].

ابن خلدون: قال في مقدمته: ((ومن علاماتهم أيضاً [أي الأنبياء] أنه يوجد لهم قبل الوحي خلق الخير والزكاء ومجانبة المذمومات والرجس أجمع، وهذا هو معنى العصمة، وكأنه [أي الأنبياء] مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها، وكأنّها منافية لجبلّته))[٢٨].

وفي هذا المضمون التقت عدة من كلمات اعلام السنة، كالواحدي في الوجيز في تفسير القرآن[٢٩] والجرجاني في المواقف[٣٠] وابن حجر الهيثمي في فتح الباري[٣١] والقرطبي في

(٢٥) الآلوسي، أبو الفضل محمود، روح المعاني: ج١، ص١٣٩.
(٢٦) أبو السعود، تفسير أبي السعود: ج٢، ص٢٦.

(٢٧) الدمشقي، ابن كثير، تفسير ابن كثير: ج١، ص١٠٤.
(٢٨) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، مقدمة ابن خلدون: ص٩٢.
(٢٩) الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ص٢٠٨.
(٣٠) الجرجاني، المواقف: ج١، ص٣٧٧.
(٣١) العسقلاني، ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري: ج١١، ص٤٨٩.

تفسيره[٣٢] وغيرهم.

وبعد هذه الجولة في هذه الشواهد الدالة على أن منشأ الاصطفاء الإلهي قائم على أساس علمه تعالى، وهذا المعنى يلتقي في الدلالة معالنصوص القرآنية التي تقدم آنفاً.

المبحث الرابع:

أسباب ومناشيء الاصطفاء عند العقل

لا يرتاب العقل المستنير في وجود عدة من الأسباب والمناشيء للاصطفاء، ويمكن بيان هذه الأسباب من خلال المقدمات التالية:

المقدمة الأولى: أن الله عادل حكيم:

المراد الحكيم هو الذي يضع الشيء في موضعه، واما المراد من عدله سبحانه هو ان لا يهمل فعلاً تحتّمه المصلحة، ولا يصدر قبيحاً تمنعه الحكمة، لان الفعل الخالي من المصلحة يكون منشأ صدوره، إما جهل الفاعل او لعجزه بصلاح الشيء وفساده، وكلا هما باطل لما ثبت في محله[٣٣] من أن الله تعالى عالم بكل شيء، وقادر على كل شئ فلا موضع للعبث في ساحته تعالى؛ لأنّه تعالى منزه عن ذلك، قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [سورة الأنبياء: ١٦ –١٨].

ولكي يتضح معنى كون الله تعالى عادلاً بشكل واضح، نشير بصورة مختصرة إلى معاني العدل وهي:

المعنى الأول: يستعمل العدل في المورد الذي يكون فيه الشيء موزوناً أي تكون أجزاء الشيء بالمقدار اللازم، فعن النبيﷺ أنه قال: ((بالعدل قامت السماوات والأرض))[٣٤] أي: أن تركيب هذا العالم روعي في بنائه التعادل، وأن كل شيء وكل ما استفيد

(٣٢) القرطبي، محمد بن أحمد، تفسير الجامع لأحكام القرآن: ج٧، ص٢٤.

(٣٣) انظر: العلامة الحلي، الحسن بن يوسف، كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص٣٣٠.

(٣٤) الكليني، محمد بن يعقوب، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج٥، ص٢٦٦.

منه بقدر الحاجة، فالعدل بمعنى التوازن والتناسب، وهو من لوازم حكمة الله تعالى وعلمه، حيث إن الله تعالى بمقتضى علمه وحكمته يضع المقادير بشكل متلائم ومتوازن.

وهذا المعنى غير مقصود في محل البحث عن العدل الإلهي، كما هو واضح.

المعنى الثاني: العدل هو التساوي، فالعادل هو الذي ينظر إلى الأفراد بالمساواة، ومن دون أي ترجيح. إلا أن هذا المعنى واضح البطلان؛ إذ أن المساواة لا تصنع العدالة، فكيف ينظر إلى الجميع بنظرة واحدة، المحسن والمسيء، والمستحق وغير المستحق!!.

المعنى الثالث: إنّ العدل هو إعطاء كل ذي حق حقه، فكل يعطى بمقدار استحقاقه، ومن هنا إذا منع المستحق شيئاً فهو ظلم، وإذا أعطي لغير المستحق، فهو ظلم أيضاً، وهذا المعنى خارج عن محل الكلام أيضاً؛ لأنه يفتقر إلى وجود حق على الله تعالى في الرتبة السابقة، ومن الواضح أنه لا يوجد موجود له حق على الله تعالى.

المعنى الرابع: العدل هو إعطاء كل موجود ما هو مستعد له، بمعنى أن الموجودات مختلفة الاستعداد فيكون العدل إعطاء كل موجود ما هو مستعد له من الوجود والكمال، أما الظلم فهو حرمان كل ما هو مستعد لوجود أو كمال وجودي من ذلك، فالفيض النازل منه تعالى لا لون له وإنما يتلون حسب طبيعة كل ظرف، فيأخذ كل موجود ما استعد له من الكمال على حسب درجة استعداده وقابلياته، وهذا هو المعني المقصود من العدل الإلهي في كلمات الحكماء الإلهيين، الذي يختلف عن المعنى السابق -الثالث-لان المعنى الثالث يبتني على وجود حق مسبقاً على الله تعالى.

إذن اتضح أن أي موجود لا يملك حقاً تجاه الله بحيث يكون إعطاء ذلك الحق أداء للدين، وإنما عدل الله هو عين الفضل والجود منه تعالى، وهو إذ يعني أن عدله يقتضي عدم منع فضله تعالى عن أي موجود بمقدار ظرفه وقابلياته وما هو مستعد له، فالموجودات جميعا

لا تملك سوى المسؤولية والتكليف تجاه خالقها، وليس لها أي حق تجاه موجدها، اذن المعنى المقصود من العدل الإلهي، وهو إعطاء كل ذي استعداد ما هو مستعد له، فالله تعالى يفيض على كل مستعد ما استعد له، وان الفيض الإلهي النازل لا لون له وإنّما يتلون بلون الإناء الذي يحتويه.

إن قلت: إذا لم يكن لأي وجود حق على الله تعالى فلابد أن يكون الإعطاء بالتساوي؛ لأنّ الجميع متساوون بالنسبة إليه تعالى، ولا يوجد لأحد حق على الله تعالى، وبذلك يرجع معنى العدل إلى المعنى الثاني وهو التساوي، وعلى هذا فلماذا اختلفت الإفاضات الإلهية على الموجودات؟.

والجواب: إن هناك فرق بين الاستعداد والاستحقاق، ومن الواضح أن الموجودات لا تستحق على الله تعالى شيئا، لكنها تختلف من حيث الاستعداد، فكل موجود يأخذ ما هو مستعد له من الفيض الإلهي، فلا يكون العطاء الإلهي متساوياً.

المقدمة الثانية: الإنسان كائن مختار:

عند إجراء مسح ميداني على القرآن الكريم لوجدنا آياته طافحة في إثبات أن الإنسان موجود مختار، ومن هذه الآيات:

قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾ [سورة يونس: ٩٩].

وقوله تعالى: ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦].

وقوله: ﴿ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾[سورة آل عمران: ٢٠].

وقوله تعالى: ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾[سورة الكهف: ٢٩].

وغيرها من الآيات التي تشاركها

في المضمون، مضافاً إلى صيرورة بعث الأنبياء وإنزال الكتب السماوية لغواً فيما إذا كان الإنسان مسلوب الاختيار.

وقد أجمعت الأديان على أن الله تعالى لو شاء أن يهدي الناس ولذا نجد جملة من النصوص القرآنية تبين أن الأنبياء ليس لهم إكراه الناس على الهداية، كما أن الشيطان ليس له إكراههم على الضلال والغواية، كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴾[سورة الحجر: ٤٢] وقال أيضاً: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٢].

المقدمة الثالثة: إنّ الله عالم بالأشياء قبل خلقها:

وقد قامت عدّة من الأدلة والبراهين الفلسفية والعقلية فضلاً عن الأدلة النقلية على ذلك ونكتفي بذكر واحد منها:

من الأدلة على أنّ الله عالم بالأشياء قبل خلقها، هو أن معطي الشيء لا يمكن أن يكون فاقداً له

وبيان ذلك: إنّ كل شيء هو مخلوق له تعالى ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾[سورة الزمر: ٦٢]، سواء كان خلق الشيء مرتبطاً بأصل وجوده، أو بالكمال الذي يرتبط بذلك الشيء.

فالله تعالى خالق كل شيء وواهب الكمال الذي يستحقه ذلك الشيء ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [سورة طه: ٥٠] وحيث أن معطي الشيء يستحيل أن يكون فاقداً له، كما هو واضح، ينتج أن الله عالم بالأشياء قبل خلقها؛ لأنّه لو كان فاقدا للعلم قبل الإيجاد، فلا يمكن أن يكون معطيا، والتالي باطل لأنّه أعطى، فإذن لابد أن يكون واجدا.

ويمكن صياغة هذا الاستدلال بالشكل التالي:

الصغرى: إنّ الله تعالى معطي وواهب كل شيء لخلقه. والكبرى: إنّ معطي الشيء يستحيل أن يكون فاقداً له. وهذه المقدمة من المقدمات البديهية التي يكفي تصور أطرافها للتصديق بها.

النتيجة: إنّ الله تعالى يستحيل أن يكون فاقداً لأي شيء مما وهبه لخلقه ومنها العلم بها قبل خلقها، ولو فقد العلم بها قبل خلقها وإيجادها، لكان فاقداً، وإذا كان فاقداً يستحيل أن يكون معطياً، والتالي باطل؛ لأنّه أعطى، فلابدّ أن يكون واجداً.

وهناك جملة من النصوص الروائية تؤيد ذلك منها:

- عن أبي الحسن عليه السلام: ((لم يزل الله عالماً بالأشياء قبل أن يخلق الأشياء كعلمه بالأشياء بعد ما خلق الأشياء))[٣٥].
- عن منصور بن حازم، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس كان في علم الله؟. قال: فقال: ((بلى، قبل أن يخلق السماوات والأرض))[٣٦].
- عن منصور بن حازم، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالأمس؟. قال: ((لا، من قال هذا فأخزاه الله، قلت: أرأيت ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة أليس في علم الله؟. قال: بلى قبل أن يخلق الخلق))[٣٧].

ونحوها من الروايات.

إذن كل ما كان وما هو كائن تفصيلاً قبل أن يخلق السموات والأرض، فهو موجود عنده تعالى.

المقدمة الرابعة: علم الله الأزلي لا يتنافى وحرية الإنسان:

إنّ العلم الإلهي كما تعلق بأصل صدور الفعل من الإنسان، تعلق كذلك بكيفية صدور الفعل عن الإنسان على النحو الاختياري.

(٣٥) الكليني، محمد بن يعقوب، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج١، ص١٠٧.

(٣٦) الصدوق، محمد بن الحسين، محمد بن علي، التوحيد: ص١٣٥.

(٣٧) الكليني، محمد بن يعقوب، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج١، ص١٤٨.

وبعبارة أخرى: إنّ علم الله تعالى تابع وليس متبوعاً، بمعنى أن علمه تعلق بصدور فعل الإنسان الاختياري بقيد الاختيار، فلو كان صدور الفعل من الإنسان جبراً لتخلف علمه عن الواقع، فالله تعالى شاءت إرادته أن لا يوجد الفعل إلا بعد تحقق شرطه، وهو اختيار الإنسان، وسيأتي ما يؤيد المطلب في الفصل العناية.

وإلى هذا المعنى أشارت جملة من الروايات الواردة عن أهل البيتهمنها ما روي عن رسول الله ﷺ قال: ((الشقي من شقي في بطن أمه، والسعيد من سعد في بطن أمه))[٣٨]. وفي رواية أخرى: ((الشقي شقي في بطن أمه، والسعيد سعيد في بطن أمه))[٣٩].

فالحكم بالسعادة أو الشقاء باعتبار ما يؤول إليه أمر الشخص، فمن ينتهي مآل أمره إلى الجنة، فهو محكوم بالسعادة منذ أوائل حياته، فكنّى عن أوائل الحياة ببطن الأم، وإلى ذلك يشير الحديث الشريف الذي رواه الصدوق بإسناده عن محمد بن أبي عمر، قال: سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام عن معنى قول رسول الله ﷺ: ((الشقي من شقي في بطن أمه والسعيد من سعد في بطن أمه فقال: الشقي من علم الله وهو في بطن أمه أنه سيعمل أعمال الأشقياء، والسعيد من علم الله وهو في بطن أمه أنه سيعمل أعمال السعداء...))[٤٠].

وعن أبي بصير، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: ((لم يزل الله عزّ وجلّ ربّنا والعلم ذاته ولا معلوم، والسمع ذاته، ولا مسموع، والبصر ذاته ولا مبصر، والقدرة ذاته ولا مقدور، فلمّا أحدث الأشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم قال[السائل]: فما بال ولد آدم فيهم شريف ووضيع؟. قال: ((الشريف المطيع، والوضيع العاصي، قال: أليس فيهم فاضل ومفضول؟. قال: إنما يتفاضلون بالتقوى. قال: فتقول:

(٣٨) الكليني، محمد بن يعقوب، محمد بن يعقوب، أصول الكافي: ج٨، ص٨١.
(٣٩) المصدر السابق: ج٨، ص٨١.
(٤٠) الصدوق، محمد بن الحسين، محمد بن علي، التوحيد: ص١٢٥٦.

إن ولد آدم كلهم سواء في الأصل لا يتفاضلون إلا بالتقوى؟. قال: نعم، إني وجدت أصل الخلق التراب، والأب آدم، والأم حواء، خلقهم إله واحد، وهم عبيده، إن الله عزّ وجلّ اختار من ولد آدم أُناساً طهر ميلادهم، وطيب أبدانهم، وحفظهم في أصلاب الرجال وأرحام النساء، أخرج منهم الأنبياء والرسل، فهم أزكى فروع آدم، فعل ذلك لأمر استحقوه من الله عزّ وجلّ. ولكن علم الله منهم حين ذرأهم أنهم يطيعونه ويعبدونه ولا يشركون به شيئاً، فهؤلاء بالطاعة نالوا من الله الكرامة والمنزلة الرفيعة عنده، وهؤلاء الذين لهم الشرف والفضل والحسب، وساير الناس سواء، ألا من اتقى الله أكرمه، ومن أطاعه أحبه، ومن أحبه لم يعذبه بالنار...))[٤١].

وغيرها من الروايات التي تؤكد بما لا يقبل اللبس على أن علمه سبحانه بالأشياء قبل الخلق وبعده على نسق واحد من دون فرق بين الحالين.

ويمكن تعزيز هذا المعنى بشهادة المفسر الكبير العلامة الطباطبائي الذي يقول في تفسيره: ((الله سبحانه يمدّ الإنسان في أعماله سواء كان ممن يريد العاجلة أو الآخرة، فإن جميع ما يتوقف عليه العمل في تحققه من العلم والإرادة والأدوات البدنية والقوى العاملة والمواد الخارجية التي يقع عليها العمل ويتصرف فيها العامل، والأسباب والشرائط المربوطة بها كل ذلك أمور تكوينية لا صنع للإنسان فيها، ولو فقد كلها أو بعضها لم يكن العمل، والله سبحانه هو الذي يفيضها بفضله ويمدّ الإنسان بها بعطائه، ولو انقطع منه العطاء انقطع من العامل عمله))[٤٢].

وبهذا المسار يذهب الفخر كما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ﴾، أي كل واحد من الفريقين، والتنوين عوض من المضاف إليه: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ

(٤١) الطبرسي، أحمد بن علي، الاحتجاج: ج ٢، ص٨٣ - ٨٤.

(٤٢) الطباطبائي، محمد حسين، محمد حسين، تفسير الميزان: ج ١٣، ص٦٦ - ٦٧.

عَطَآءِ رَبِّكَ ﷻ، أي أنه تعالى يمد الفريقين بالأموال ويوسع عليهما في الرزق مثل الأموال والأولاد، وغيرهما من أسباب العزّ والزينة في الدنيا؛ لأن عطاءنا ليس يضيق عن أحد مؤمناً كان أو كافراً؛ لأن الكل مخلوقون في دار العمل، فوجب إزاحة العذر وإزالة العلة عن الكل وإيصال متاع الدنيا إلى الكل على القدر الذي يقتضيه الصلاح، فبين تعالى أن عطاءه ليس بمحظور، أي غير ممنوع يقال حظره يحظره، وكل من حال بينه وبين شيء فقد حظره عليك))[٤٣].

إذن لما علم الله تعالى أن إرادتهم ه تجري دائماً على وفق ما شرّعه لهم من أحكام، نتيجة ما زودوا به من إمكانات ذاتية واستعدادات خاصة، فهو تعالى يهيّئ لهم كل ما يحقق مرادهم من دون سلب اختيارهم كما أراد للأنبياء الطهارة والعصمة.

ومن مجموع ما تقدم من مقدمات من كون الله تعالى عادلاً حكيماً يعطي كل مستعد لما استعد له، وأن الله تعالى عالم بالأشياء قبل خلقها، وأن الإنسان كائن مختار، ينتج أن الله تعالى لو علم باستعداد إنسان لكمالات معينة، فإنّه تعالى بمقتضى حكمته وعدله سوف يهيّئ له ما يوصله إلى ما استعد له.

وفي هذا الضوء لمّا علم الله تعالى منذ الأزل باستعداد هذه المجموعة من البشر-وهم الأنبياء والأوصياء- لتحمل مقامات الرسالة والولاية، فان الله تعالى قد اصطفاهم واختارهم، وهيّأ لهم ما يمكّنهم من وصولهم إلى ما استعدوا له.

وبعبارة أخرى: إنّ عدم إفاضة وإعطاء المستعد ما استعد له، إمّا لبخل، أو لعجز، وكلاهما محال على الله تعالى كما هو واضح، فقد اصطفى تعالى الذين شاء من عباده من بداية الخلق لعلمه مما سيكون من شأنهم وقابليتهم.

إذن بمقتضى حكمته وعدله بإعطاء كل مستعد ما استعد له، أن ييسر له ما استعد له كل حسب قابليته واستعداده، وإلاّ أضر بحكمته وعدله.

(٤٣) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): ج ٢٠، ص١٨١.

وقد تناول الشيخ الطوسي هذه النقطة بالذات في إجابته عن إشكالية تقديم هؤلاء المصطفين قبل العمل، حيث يقول: ((إذا كان في المعلوم أن صلاح الخلق لا يتم إلا بتقديم الأعلام لذلك بما قدم من البشارة بهم، والإخبار بما يكون من حسن أفعالهم والتشويق إليهم بما يكون من جلالتهم إلى غيره من الآيات التي تشهد لهم، والقوى في العقول والإفهام التي كانت لهم، وجب في الحكمة تقديم ذلك لما فيه والآية تدل على أن الذين اصطفاهم معصومون منزهون، لأنه لا يختار ولا يصطفي إلا من كان كذلك، ويكون ظاهره وباطنه واحدا، فإذا يجب أن يختص الاصطفاء بآل إبراهيم وآل عمران من كان مرضيا معصوما سواء كان نبيا أو إماما))[٤٤].

وبهذا يلتقي القرآن والرواية بالإضافة إلى معاضدة الدليل العقلي للدلالة على أن الباري تعالى يصطفي بعض عباده ممن له استعداد إرادة للطاعة والعبودية ويهيئ لهم تعالى المقدمات التي يمكن من خلالها الوصول إلى مقام الطاعة والقرب الإلهي.

المبحث الخامس:

أسباب ومناشيء الاصطفاء عند العقلاء

الاصطفاء منهج عقلائي، يمارسه العقلاء في حياتهم، ألا ترى لو وجد بين الطلاب طالب يمتاز بنبوغ عال، فهل من العدالة والإنصاف أن يترك مع بقية الطلبة؟. من الواضح أنّ هذا غير صحيح؛ لأنّ العدالة تقتضي أن توفر الرعاية والعناية الخاصة، وتهيئ الإمكانيات التي تجعله قادراً على الإنتاج، والاستفادة من طاقاته ونبوغه بحسب قابليته.

وهناك ومثال آخر يمارسه العقلاء في حياتهم اليومية، وهو فيما لو كان لديك أولاد وكان لأحدهم نبوغ وكفاءة، فهل من العدالة أن تساوي بين هذا النابغة وبقية أخوته من توفير مقدمات الدراسة؟.

الجواب: بناء على ما تقدم من أن قوام

(٤٤) الطوسي، محمد بن الحسن، التبيان: ج ٢، ص٤٤٠.

العدل هو إعطاء كل مستعد ما هو مستعد له، وإلاّ فيكون ظالماً له.

فعلى هذا الأساس فالعدالة إذن تقتضي توفير وتهيئة الظروف الملائمة للاستفادة من نبوغه، ومن الظلم له تركه ومساواته مع غيره من الذين لم يحصلوا على مثل ما حصل عليه.

ومن هنا فالله تعالى أولى عناية خاصة بهذه المجموعة من البشر الذين اصطفاهم بعلمه السابق بهم، وبقابليتهم على طاعته بأعلى درجاتها، دون غيرهم من الناس.

بل قيل إن في علم الهندسة الوراثية يدرسون جينة الشخص؛ لتشخيص قابلياته ومعرفة خصائصه واستعداده ليضعوه في الموضع والمكان المناسب، وهل له قدرة على القيادة والعطاء أم لا؟. وهذا هو منهج الاصطفاء الإلهي.

وهذا المعنى يقرره صدر المتألهين بقوله: ((يختار اللهّ عزّ و جلّ أنبياءه ورسله، لما يجده فيهم من مقومات عظيمة ومؤهلات عالية، ولما يراه مناسباً لقومهم، ويلاءم عصرهم وزمانهم. وهذا منهج يتبعه القادة والحكام، فإنهم يبعثون الرسل والسفراء إلى أمراء العالم وحكامهم، و يختارونهم اختيارا موفقا يؤدون فيه مهامهم أداء حسناً، غير أنه مع الأسف الشديد يرفض بعض الجهلاء هذا المبدأ العقلي السليم))[٤٥].

إذن اختيار الله تعالى واصطفاؤه للأنبياء والأوصياء، إنما جاء وفقاً للعدالة والحكمة الإلهية التي تقتضي إعطاء كل مستعد ما هو مستعد له، وإلا -لو لم يعط كل مستعد ما هو مستعد له -لأخل بحكمته وعدالته.

وعلى هذا الأساس فقد اعتنى الله تعالى بمن اصطفاهم من الأنبياء والأوصياء.

أمّا كيفية العناية الإلهية وآليتها، فهو يحتاج إلى بحث مستقل لبيان العنايات الإلهية بالمصطفين من عباده.

(٤٥) الرازي، فخر الدين، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير): ج٣، ص٢٠٠.

المصادر

القرآن الكريم

١. العسقلاني، ابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتب العلمية، بيروت.

٢. الواحدي، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار القلم ، الدار الشامية- دمشق، بيروت.

٣. الجرجاني الشريف علي بن محمد، التعريفات، ط١، انتشارات ناصر خسرو، طهران.

٤. ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، دار المعرفة.

٥. الآلوسي، روح المعاني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٦. البخاري، الجامع الصحيح، ط١، دار الفكر، بيروت.

٧. بن عاشور محمد طاهر المالكي، التحرير والتنوير.

٨. البيضاوي، تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت.

٩. الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، ط٢، دار المكتب العلمية، بيروت.

١٠. الراغب الاصفهاني، مفردات القرآن كريم، ط ١، دار الشامية، بيروت.

١١. الزبيدي، تاج العروس، مكتبة الحياة، بيروت.

١٢. الزمخشري، الفايق في غريب الحديث: ط الأولى، ١٤١٧، دار الكتب العلمية.

١٣. الزمخشري، الكشاف، ط٢، منشورات البلاغة، قم.

١٤. الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، دار المفيد للطباعة والنشر، بيروت.

١٥. الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم.

١٦. الصدوق، التوحيد، تحقيق السيد هاشم الحسيني الطهراني، جامعة المدرسين -قم.

١٧. الصدوق، الخصال، منشورات جماعة المدرسين، قم.

١٨. الصدوق، علل الشرائع، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف.

١٩. الصدوق، عيون أخبار الرضا عليه السلام،

تحقيق حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي، بيروت.
٢٠. الصدوق، من لا يحضره الفقيه، تحقيق علي أكبر غفاري، ط٢، جماعة المدرسين، قم.
٢١. الصفار محمد بن الحسن، بصائر الدرجات، منشورات الأعلمي، طهران.
٢٢. الطباطبائي محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة اسماعيليان، قم.
٢٣. الطبراني، المعجم الأوسط، دار الحرمين، القاهرة.
٢٤. الطبراني، المعجم الكبير، مكتبة العلوم والحكم، الموصل.
٢٥. الطبراني، مسند الشاميين: مؤسسة الرسالة ـ بيروت.
٢٦. الطبرسي، الاحتجاج، دار النعمان للطباعة والنشر، النجف الأشرف.
٢٧. الطبرسي، مجمع البيان، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٢٨. الطبري، جامع البيان، دار الفكر، بيروت.
٢٩. الطوسي، التبيان، مكتب الإعلام الإسلامي، طهران.
٣٠. الطوسي، تهذيب الأحكام، تحقيق السيد حسن الخرسان، ط٤، دار الكتب الإسلامية، قم.
٣١. علي ابن إبراهيم القمي، تفسير القمي، مطبعة النجف، ١٣٨٧هـ.
٣٢. القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٣٣. الكليني، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، نشر: دار الكتب الإسلامية أفندي، ط٣ -١٣٨٨هـ.
٣٤. المجلسي، بحار الأنوار، مؤسسة الوفاء، بيروت.
٣٥. مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ط١، دار الفكر، بيروت.
٣٦. الهيثمي نور الدين مجمع الزوائد، نشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، طبعة عام ١٤٠٨.
٣٧. الفراهيدي، كتاب العين، ط ٢ـ مؤسسة دار الهجرة.
٣٨. الفيض الكاشاني، التفسير الصافي ط الاولى، منشورات الاعلمي بيروت.

٣٩. أبو السعود، تفسير أبي السعود، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٠. ابن خلدون، تاريخ بن خلدون، دار الفكر، بيروت.
٤١. ابن كثير، البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت.
٤٢. كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد، للعلامة الحلّي جمال الدين حسن بن يوسف بن المطهّر. تحقيق حسن حسن زاده الآملي. الطبعة الأولى، قم، مؤسّسة النشر الإسلامي، ١٤٠٧.
٤٣. ابو المعالي صدر الدين محمد بن اسحاق، مفاتيح الغيب ط الاولى ١٤١٦ -ايران).
٤٤. الحسني، ابن طاووس، التحصين: الطبعة الأولى، ١٤١٣مؤسسة دار الكتاب الجزائري.